مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد05 / العـدد: 02 (2019)، ص 88-104

أسس الاتجاه النفسي في النقد الأدبي

The foundations of the psychological trend in literary criticism

أ. بن طيب عبد القادر
جامعة محمد بن أحمد وهران 2 (الجزائر)، Kada_kader75@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/07/28 تاريخ القبول: 2019/11/04 تاريخ النشر: 2019/12/26

الملخص :

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة أسس الاتجاه النفسي في النقد الأدبي، وميادين الدراسات الأدبية في النقد النفسي التحليلي، ومن أجل هذا كانت عنايتنا في هذه الدراسة على صلة التحليل النفسي بالأدب، وعوامل نشأة الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث. وتوصلت الدراسة إلى أن المنهج النفسي التحليلي من الممكن أن يكون مفيدا في فهمنا و تحليلنا للأعمال الأدبية، وذلك من خلال احتكاك علم النفس بالأدب وارتباط التحليل النفسي بالنقد الأدبي.

الكلمات المفتاحية: علم النفس الأدبي؛ الدراسة النفسية؛ النقد الأدبي؛ المنهج النفسي؛ التحليل النفسي للأدب.

Abstract:

This study aims at identifying the foundations of the psychological trend in literary criticism and the fields of literary studies in analytic psychoanalytic criticism. For this purpose, our interest in this study was related to the psychological analysis of literature and the factors of the emergence of the psychological trend in modern Arab criticism. The study concluded that the analytical psychological approach can be useful in our understanding and analysis of literary works, through the friction of psychology with literature, and the correlation of psychoanalysis with literary criticism.

Keywords: Literary Psychology; Psychological Study; Literary Criticism; Psychology; Psychoanalysis of Literature؛

المقدمة:

تعتبر الصفات التي تميز العلم الحديث عن الحركات الأوروبية الأخرى، أنها أول ما اتجه إليه الفكر العلمي في أوروبا الحديثة دراسة المادة و محاولة السيطرة على الطبيعة، ثم اتجه هذا الفكر لدراسة ظواهر الحياة، دراسة علمية منظمة في القرن التاسع عشر. وما كاد يبدأ النصف الثاني من ذلك القرن حتى خطى البحث خطواته الكبرى نحو دراسة النفس الإنسانية في مظاهر تفكيرها وإحساسها وذوقها واجتماعها، ودراسات شاملة لونت بلونها العصر الذي نعيش فيه الآن (خلف الله ، 1961، ص11). ومن ذلك الحين أصبحت الدراسة النفسية للإنسانية تبحث في أصولها العلمية، وعلاقتها بالعلوم الأخرى.

غير أن صلة الدراسة النفسية بالأدب والنّقد ممتدة الجذور في التّراث الإنساني وخصوصاَ تلك التي تربط الأدب بصاحبه، وتجعل تميّز الشاعر نابعًا من الإبداع الذي يأتي به، والسحر الذي يضفيه على النفوس ويحرّك به القلوب، حتى لا يقترن الشعر في الآداب القديمة بالآلهة والسحر وبالجن. « والواقع أن ميدان التحليل النفسي -لا يقصد التحليل النفسي الفرويدي خاصة- من أخصب ميادين علم النفس من جهة علاقته الأدبية، فإن تنقيبه في أعماق النفس الخفية وجها لوجه أمام طائفة من المعضلات التي شغلت باحث الأدب قرونا طوالا ولا تزال تشغلهم. » (خلف الله ، 1961،ص22).

فهل نعجب بعد ذلك أن نرى تيارات علم النفس تحتك بالأدب، ودراسته في غير موضع ؟ أليس الأدب من أروع ما تنتجه نفس الإنسان ؟ أليس وليد الشخصية الإنسانية ؟

العرض:

1- علم النفس وعلاقته بالأدب والنقد

أ – احتكاك علم النفس بالأدب

كان هذا الاحتكاك بالأدب طبيعيا كما كان من الطبيعي أن يحتك الأدب بدراسات الجمال والواقع أن هذين النوعين من الدراسة (النفس و الجمال) أصيلان في طبيعة الأدب وليس أدل على ذلك من أن يحاول الباحث وضع تعريف علمي للأدب حتى تبدو له ناحيتا النفس و

الذوق في مكانهما الجوهري من إنتاج الأدب و جماله و منافذه إلى النفوس. (خلف الله ، 1961، ص21)

ولكن احتكاك علم النفس لم يجيء من علماء النفس وحدهم بل من رجال البحث الأدبي أيضا الذين تكلموا في تاريخهم الطويل عن الخيال في تقليده واختراعه، وعن العاطفة في صدقها وباطنها واضطراباتها وهدوئها، وعن الشخصية عن ظهورها أو عدم ظهورها في القصيدة... وعن أسباب إجادة هذا الشاعر في فن ما، وذاك في فن آخر وعن الأحوال والظروف التي مر فيها منشأ الأدب، وما كان لها من أثر في نوع أسلوبه الكتابي ولهجة خطابه ونوع أوزانه وقوافيه. (خلف الله ، 1961، ص28).

كل هذه وكثير غيرها ميادين مشتركة، فلم لا يُغير باحثوا الأدب على حدود علم النفس كما أغار علماء النفس على الأدب بهذه التطورات التي جلاها لهم النفسيون على قدر ما سمحت روح العصر في رقية مناهج بحثه، وكانت من قبل يحيط بها الغموض والاشتراك. (خلف الله، 1961، ص29).

ب - السيرة النفسية لصاحب النص الأدبي

بدأ الاهتمام بالكاتب (المبدع) مع نشأة العلوما لبيولوجية والدراسات السيكولوجية. وظهر هذا الاهتمام في المدرسة النفسية، والمدرسة الرومانسية. فإذا أخذنا المدرسة النفسية في الأدب والنقد أنموذجاً على سلطة الكاتب تبين أن أول من عني بالتفسير النفسي للأدب هو الناقد الفرنسي " سانت بيف " الذي أنشأ سلسلة من المقالات باسم (صور المؤلفين)، ممهداً بها لنقد يحاول اكتشاف (نفسيّة المؤلف)، حيث جمع مواد كثيرة عن أصول المؤلف، ونشأته وسيرته الذاتية، وعلاقته بمجتمعه من أجل كشف الحالة النفسية التي تسلطت على الأديب أثناء إبداعه الأدبي.(عزام، 2002، ص 75).

منذ أن ظهرت كتابات " سانت بيف " النقدية بدأت تتردد مقولة مفادها أن: « فهم العمل الأدبي غير ممكن إلا بفهم الإنسان الذي أنتجه. »(حيدوش، دت، ص11) لقد غدت إحدى مهمات الناقد عند " سانت بيف " البحث عن حقيقة الإنسان المبدع والموهبة الفردية و

طابعها المميز من خلال الإبداع الأدبي. فالذي يهمه أولًا هو أن يعرف فكر وعبقرية المؤلفين و أن يرسم صورا صادقة لجوانب حياتهم النفسية منها خاصة، مع التركيز عل الجوانب الأكثر خصوصية و الأكثر ديمومة فيهم انطلاقًا من عملية نشر إنتاجهم الأدبي، ثم محاولة إظهار كيفية تطور الإنسان موهبته عبر الزمن.

وبهذه الطريقة يكون " سانت بيف " قد رسم لنا نوعا من السيرة النفسية للأدباء وكان منهجه النقدي يهدف إلى البحث عن الفرد للوصول إلى مجموعة من الأفراد.

إن الجديد في الطريقة التي اتبعها " سانت بيف " في النقد يتضح في المكانة التي خصصها للإنسان في دراسة العمل الأدبي. وأنه أول من أرسى أسس تقليد جديد في النقد الأدبي يهتم بالبحث عن السيرة النفسية للمؤلف وقد وسع هذا التقليد فيما بعد في فرنسا اعتمادا على أساس التحليل النفسي الفرويدي. (حيدوش، دت، ص11) لا يعني هذا أن سانت بيف كان وحده في الميدان أو انه الوحيد الذي اتجه هذه الوجهة في عصره كذلك اهتم " كولردج " بذاتية الأديب، فوضع كتاب (السيرة الأدبية عام 1817) عدّه النقاد الغربيون إنجيل النقد الحديث، لأنه أكبر خطوة خطاها النقد نحو هذا الاتجاه في مرحلته الأولى، وقد أثار فيه قضايا أدبية، منذ اختمارها في نفس الكاتب، حتى ظهورها في شكل فني.(عزام، 2002، ص 87).

إن النقد الأدبي عند كولرج وسانت بيف بدأ يقترب من علم النفس، وفي مقابل هذا التطور الداخلي للنقد باتجاه علم النفس، حدث تطور في الدراسات النفسية إذ اتجهت صوب الأدب مما أدى إلى التداخل ولاسيما منذ أواخر القرن التاسع عشر، إذ لم تعد دراسة الأدب من حق النقد الأدبي وحده بل هي من حق علم النفس أيضا، فكان لزامًا على النقد الأدبي أن يوسع دائرة بحثه في وجه المنافس الجديد : (علم النفس) الذي أخدعلى عاتقه الإجابة عن أسئلة جديدة لم يعر لها النقاد أهمية من قبل. (حيدوش، دت، ص12).

2 - أقطاب التحليل النفسي:

أسهم التحليل النفسي في الحركة النقدية المعاصرة، بحيث لا يمكن إنكار ذلك، فتحليل الفنون من وجهة نظر نفسية غدا أمرا شائعا خارج الحقل العيادي و الطب العقلي، ولاسيما

بعدما سبر المحللون أغوار اللاوعي و فسروا به كثير من سلوك العباقرة وأعمالهم الفنية و مضيفين إلى المناهج التقليدية ما يغنيهما من عمق و بعد.(خريستو نجم،1991، ص28)

لقد أغرى التحليل النفسي عددا من الباحثين كانوا في أكثرهم أطباء في مدرسة التحليل النفسي، فقد أفرد المصنفون لهذا الحقل كتبا كاملة. « ولكننا نتوقف عند نقط بارزة نراعي فيها أهم الخصائص في المنهج التحليلي النفسي. وطبيعي أن نبدأ " بسجموند فرويد " لأنه أول من طبق هذا المنهج في دراساته على الفنانين الأدباء.» (خريستو نجم،1991، ص31)

أ – سجموند فرويد و التحليل النفسي لصاحب النص الأدبي :

يعد سجموند فرويد (1856م – 1939 م) أول من أخضع الأدب للتفسير النفسي، ولعل ما يلاحظ في نظريات " فرويد " أنه آمن بأن الباعث على الفن ليس المحاكاة كما يرى الدارسون الإغريقيون و أتباعهم من نقاد القرن (17-18) و إنما هي (الغريزة الجنسية) (أنظر التعليق رقم:1). و الفنان عنده إنسان (عصابي) (أنظر التعليق رقم:2) غير أن الفنان يعرف كيف يشق طريقه عائدا من عالم الخيال بينما لا يستطيع العصابي التخلص من أوهامه وهذا يعني أن الفنان لا يسترجع وعيه الكامل إلا بعد ما ينتهي من عملية الإبداع فهو عصابي في لحظة الإبداع.(شايف، 1985، ص 112).

ويعتبر التحليل النفسي وسيلة الباحث في الأعماق المتوغل في سراديب اللاوعي طلبا للحوافز الكامنة وراء الإبداع. فسؤل" فرويد " عن الأساتذة الذين أثروا في تكوينه ، فكان جوابه إشارة من يده نحو مكتبته؛ حيث اصطفت روائع الأدب العالمية، فما يهمنا من جواب " فرويد " إظهار الصلة الوثيقة بين الأدب و علم النفس فالشعراء هم علماء النفس الأوائل الذين سهلوا لمن جاء بعدهم من علماء العصور الحديثة للكشف عن أسرار النفس والولوج إلى أغوارها حتى سمعنا فرويد يشيد بأولئك العارفين الضليعين بالنفس الإنسانية الذين اعتدنا تكريمهم باسم الشعراء.(خريستو نجم، 1991 ، ص29)

كان فرويد شغوفا بقراءة الآثار الأدبية شديد الإعجاب بالشعراء و الأدباء لأن الشاعر عنده رجل تراوده الأحلام في حال اليقظة كما تراوده في نومه.(حيدوش، دت ، ص14)

فالشعراء و الأدباء عامة يعيدون قصة الغرائز في لغة ساحرة مؤثرة، ولكنهم لا يفصحون عن ماهيتها وبذلك يوفرون لعالم النفس مادة غزيرة حين يصورون المشاعر العنيفة تصويرا مؤثرا ويكسبونها دلالة شاملة فالأدب إذن يقدم الأنماط العامة أو المادة الخام عن النفس الإنسانية فتنتفع بها مصطلحات التحليل النفسي.(حيدوش، ص14). إن فرويد خص الشعراء والأدباء عامة بمكانة ومنزلة خاصة حتى أنه ليرى أنهم المكتشفون الحقيقيون (للاوعي) عند الإنسان، حيث اعترف بأنّ الذين ألهموه نظريته في التّحليل النّفسيّ هم الفلاسفة والشعراء والفنّانون.

يعتبر ما قام به "فرويد" مستفيداً من تجارب سابقيه، حيث قسم الجهاز النفسي الباطني إلى ثلاثة مستويات (فرويد، 1988 ، ص 14) :

- المستوى الشّعوري "conscient" - ما قبل الشّعور"preconscient"

- اللاّشعور"i,inconscience"

والمستوى الأخير، هو الفرضيّة الأساسية التي تقوم عليها نظريّة التّحليل النّفسيّ، وينقسم بدوره إلى ثلاث قوى متصارعة، هي (فرويد، ص 15):

- الهُو :" le ça " ويمثّله الجانب البيولوجي. - الأنا :"le moi" ويمثّله الجانب السيكولوجي أو الشعوري. - الأنا الأعلى:" le sur moi" :ويمثّله الجانب الاجتماعي أو الأخلاقي...

ليس لنا أن نسهب في تحليل (الجهاز النفسي) (فرويد، ص25) الباطني للإنسانية الذي تقوم عليه نظرية فرويد، إذ يكفي هذه الإشارة لعلها تغني عن التفصيل لمستوياته وقواه و أليّاته، وما يتصل به من عقد وغرائز ومكبوتات.

لقد استمد فرويد كثيرا من مطالعاته، كونه رجلا متميزا باللبقة الاجتماعية و بالثقافة. و كل شخص يحاول أن يكون فكرة عن أعماله يعلم انه أنتج كثيرا حول الفنانين والأدباء والظواهر الأدبية، كما أن له مؤلفات هي ذات أهمية عظمى كانت قد ألفت وصدرت قبل مشروع تطبيق التحليل النفسي على الأدب، و بالأخص ما يقارب الحلم و زلة اللسان والكلمة المنشدة (بلامان نوبل، 1999،ص 23).

بل إن أعظم ما أسهمت به النظرية الفرويدية، كان إبرازها واستنباطها للجوانب المتعددة في المضامين الزاخرة بالرموز والدلالات في أعمال فنية وأدبية متعددة والمعاني الخفية التي انبثقت منها (راغب، 2003، ص 356). وكان في استطاعة الفرويدية أن تلقي الأضواء الفاحصة على احتياجات الفنان ودوافعه النفسية من خلال تفسيرها المنهجي لهذه الرموز والدلالات (راغب، ص 356).

ودافع فرويد عن افتراضاته دفاع المتأكد، و رآه مشروعا من الناحية العلمية، و يمكن أن يستدل عليه بطريقة خاصة تؤكد وجود هذه العمليات النفسية (اللاشعورية) شأنها في ذلك شأن الافتراضات العلمية الأخرى التي تبحث عن عمليات كيميائية غير مدركة، ولكنها تتمكن من تعيين القوانين التي تسيطر على هذه العمليات و تتبع علاقتها المتبادلة (راغب، ص 356).

عاد بعد ذلك فرويد في أرائه، وهذا ما جر عليه الاهتمام بأنه وسم الفنانين بالمجانين وقد عدل بعض الآراء التي سبق أن أقرها في بداية عهده؛ فقد عدل نظرية الباعث على الفن بعدما تبين له أن بعض المواقف في الحياة تتطلب عكس ما يدعي . وتراجع عن نظرية الإشباع في الإبداع الفني، إذ ليس كل عمل فني هو بمثابة تعويض عما تعكس أو استحال تحقيقه في عالم الواقع (عكاشة، 1985، ص112).

وهناك قضية أخرى هامة تتعلق بالمنهج الفرويدي في فهم الأدب يقول عنها الدكتور "د.عبد الله بن حلي " أنها تقوى الانتقادات التي وجهت إلى صاحب التحليل النفسي، لعل عدم وضوح الرؤيا بين(نشأة الفن وما الفن) عند فرويد كان من الأسباب التي أدت إلى المآخذ التي أخذت على منهجه وقد أجملها الدكتور عبد الله بن الحلي فيما يلي (حداد، 1995، ص 112)

أولا : النظر في الأدب من زاوية نفسية فقط معظمها جنسي .

ثانيا : إهمالها لشكل الأدب ووقوفها عند حدود المضمون و مزاج الأديب.

ثالثا : خلطها بين الأدب و نشأته .

رابعا : نظرتها إلى الأديب بصفته معصوبا و إلى الأدب بصفته ظاهرة للعصاب .

خامسا: تفسيرها للأدب بواسطة طريقة التحليل العلاجي، و تغاضيها عن خصوصية الأدب

سادسا : فقرها إلى معيار أدبي في التقويم .

سابعا : تجاهلها للمقومات الاجتماعية و التاريخية و التراثية و البيئية ....التي لا ينهض الأدب في غيابها ووقوفها عند حدود اللاشعور وحده.

ثامنا : وقوعها في عيوب التعسف و التكرار

وهذه المآخذ لا تقلل من مساهمة المنهج الفرويدي في الأدب و لا تلغى استفادة النقد من معارفه المختلفةو الاستعانة به في معرفة أعماق النفس البشرية الغامضة. و إلى جانب ذلك " يشير د.عبد الله بن الحلي" إلى عدة قضايا أخرى يمكن للنقد أن يفيد فيها من نظرية التحليل النفسي منها: دراسة الصورة الشعرية في ضوء نظرية الحلم وبحث قضية التوصيل على أساس مبدأ اللذة..... (حداد، 1995، ص 113)(بن حلي، د ت، ص 100).

لكن النظرية الفرويدية في الوقت نفسه غير مسلحة بالأدوات النقدية التي يمكن أن نقيم بها الشكل الفني والأسلوب واللغة والعناصر الذاتية والجمالية وهي كلها عناصر وأدوات ينفرد بها الإبداع والنقد (راغب، 2002، ص356).

ويشير "د.عبد الله بن حلي" إلى التباين الكبير بين مالينوفسكي و فرويد حول عقدة أديب. فإذا كان فرويد يعدها أصل كل حضارة فإن " مالينوفسكي " يعدها مجرد نتيجة لحضارة معينة (حداد، 1995، ص 101).

والواضح أن فرويد استخدم منهج التحليل النفسي قاعدة في تفسير الظاهرة الأدبية وانطلق من مسلمته المعروفة (عقدة أديب) وعلاقة الأبناء بالآباء التي تكتشف له في نهاية كل دراسة، وهنا يجد فريد نفسه مضطر أن يقول أن التحليل النفسي غير قادر أحيانا على النفود إلى آليات العمل الإبداع للشخصية، وإن هذه العملية لا تخضع للتجزئة والتصنيف التحليلي أي أن التحليل النفسي لا يصل إلى جوهر الإبداع الفني ولا يفسر عبقرية الشاعر

(عكاشة، 1985، ص104). وإن فرويد كان يبحث عن شيء يؤكد به نظريته؛ ولذلك كان رأيه غير ثابت تماما عن الأديب كما يقول عنه "رونيه ويلك"(عكاشة، ص114)..

وفرويد ليس أول من نسب الإبداع إلى اللاشعور، فقد كانت طبيعة العبقرية الأدبية منار تخمينات قديمة، فالشاعر رجل (مجدوب) مند عهد اليونان و هو ليس رجل كالرجال " فهو أقل و أكثر منهم في وقت واحد، و كأن اللاشعور الذي يغترف منه الكلام يعد متجاوزا للعقلية ودونه في أن واحد" (عكاشة، ص115).

لذلك تتساوى النظرية السيكولوجية و الفرويدية مع أنواع أخرى من النظريات السياقية في عجزها في إصدار تقييم نقدي شامل لكل العناصر الفنية والجمالية المكونة للعمل الأدبي (عكاشة، ص115) فهي تكتفي بالبحث في المضمون الفكري أو المشكلة النفسية التي يجسدها العمل والتي لا تزيد على مجرد عناصر من عناصره.

ب - توسيع نظرية التحليل النفسي و أثرها في فهم الأدب

- ألفرد آدلر والشعور بالدونية:

لكن أتباع فرويد تطرفوا في تفسير الأعمال الإبداعية، فهذا " ألفرد أدلر(1937)" صاحب مدرسة (علم النّفس الفرديّ) يخالف أستاذه "فرويد" في أن تكون الغريزة الجنسية السّبب الوحيد لظهور الأمراض العصابية، والباعث الأول على الفنّ. « ويرى أن الشعور بالنّقض هو السّبب الرّئيسيّ في نشأة العُصاب، وأنّ الباعث الأساسي على الفنّ هو "غريزة حبّ الظّهور أو حبّ السّيطرة والتّملّك .» (مختاري، 1998، ص14) فذهب" آدلر" إلى أن الإبداع هو تعويض عن (عقدة النقص) التي يعاني منها المبدع.

عارض فرويد لأنه يرى أن معلمه يؤكد الجنس أكثر مما ينبغي، وتقوم نظريته على أن الحياة النفسية للفرد يحكمها الشعور بالنقص أو الدونية على ما يطلق عليه أحيانا (حيدوش، دت، ص27). ولعل ما يميز نظريته إلى جانب هذا البحث هو اهتمامه بالجانب الاجتماعي ... غير انه لم يتعمق السياق لاجتماعي بتناقضاته، وبقي عنده محصورا في غريزة

حب السيطرة والظهور والتعويض والرغبات اللاشعورية والطابع البيولوجي الوراثي. (مختاري، 1998، ص14)

- كارل غوستاف يونغ والإسقاط :

وهذا "كارل غوستاف يونغ (1875م – 1961م)" يرى أيضاً أن أستاذه "فرويد" غالى كثيراً في إعطاء هذه الأهميّة الكبيرة للغريزة الجنسية، حين عدّها سبب نشأة العُصاب عند الفنّانين، والباعث الأول على الفنّ. ولعل ما انفرد به " يونغ" عن فرويد و أدلر هو نظريته في اللاشعور إذ قسم اللاشعور إلى قسمين :اللاشعور الشخصي أو الفردي واللاشعور الجمعي أما النوع الأول فهو ما انطلق منه فرويد في تحليلات للأعمال الفنية بينما النوع الثاني (فهو يحوي التجارب والأفكار الموروثة و يمثل طرائق التفكير البدائي للعقل البشري)(عكاشة، 1985، ص113)

فاللاشعور الجمعيّ، بهذا المعنى، يمثّل استكشاف خبرات الماضي والغوص في تجارب الأسلاف فينبثق عنها إسقاطات إبداعية في قالب فني. وهو منطلق "يونغ" في تحليل عمليّة الإبداع بصورة عامة ومعنى هذا، أن كل المؤثرات يجب أن تمرّ عَبْر اللاشعور الجمعي أو الخافية العامّة كما يسميه، في حين أن العملية الإبداعية عند "فرويد" تتم مباشرةً بالتّسامي (مختاري، 1998، ص 15).

وفي ضوء المأخذ التي وجهت إلى الفرويديين و أشياعهم تجنب بعض الدارسين ما وقع فيه الفروديون ولعل من أشهر الذين حاولوا دراسة الأدب نفسه في ضوء حقائق علم النفس كان "شارل بودوان" و تلميذه " شارل مورون" .

- شارل بودوان و النقد النفسي:

حاول الباحث شارل بودوان الإفادة من أخطاء الفرويديين في دراساته، فذهب مذهباً يختلف قليلاً عن منهجهم في المعالجة.وأصبح التحليل النفسي عنده شرح و تقييم أمور

جديدة من خلال التوضيح النفسي و طريقته تنحصر في تحليل نفسي أدبي، وشرح وتقويم من خلال الحقائق النفسية، والمتابعة الدّقيقة لمُكوّنات العمل الأدبي،وعلى المعطيات البيوغرافية. وذلك لإعادة بناء التراكيب الأساسية الكامنة وراء النص الأدبي (عكاشة، د ت، ص114).

كما نفى (شارل مورون 1899م- 1966م) أن يكون التحليل النفسي للأدب مجرد تحليل (إكلينيكي) و رأى أن مهمة النقد الأساسية هي تنوير العمل الأدبي نفسه أو هي فن قرأته. (عكاشة، ص114)

وفنّ القراءة هو الدّعامة الأساسية التي يقوم عليها منهج النقد النفسي عنده، فهو ينطلق من عوامل ثلاثة تكوّن الإبداع الأدبي، هي: الوسط الاجتماعي وتاريخه وشخصية الأديب وتاريخها، واللّغة وتاريخها والعامل الثاني- أي شخصية الأديب وتاريخها - هو موضوع النقد النّفسي في المقام الأول، (مختاري، 1998، ص 17) و تجمع عامة البحوث والدراسات على ان الناقد النفسي شارل مورون الذي اليه يعزى مصطلح النقد النفساني (Psycho-critique) قد حقق للنقد الأدبي انتصارا منهجيا كبيرا إذ فصل النقد الأدبي عن علم النفس،وجعل من النقد الأدبي أكبر من أن يبقى مجرد شارح وموضوح لعلم النفس مقترحا منهجا لا يجعل من التحليل النفسي غاية في ذاته بل يستعين به وسيلة منهجية في دراسة النصوص الأدبية (العامري، 2009، ص 368).

و لقد وجهت لهؤلاء الدارسين للأدب من علماء النفس بعض المآخذ والانتقادات كان من أهمها أن مطالبهم لا تنأى عن الفنانين دراسة إكلينيكية (عياديه) لان الغاية من أبحاثهم كانت أساسا طبية (عكاشة، د ت، ص114)، وهذا ما أشار إليه الدكتور عبد المالك مرتاض فهو من معارضي القراءة النفسانية التي وصفها بـ: " المريضة المتسلطة، ثم راح في دراسته (القراءة بين القيود النظرية وحرية التلقي) يصب جام غضبه على المنهج النفسي القائم على" افتراض مسبوق يتجسد في مرضية الأديب ... وإذن فكل أدب نتيجة لذلك مريض أيضا، ويذكر من عيوب هذا المنهج:

اصطناع الإجراءات المنهجية عن الأدب (الأدب و أجنبيتها تجعلها غير قادرة على تفجير مكامن النص و خفياه) والتعسف في تأويل النص تأويلا جزئيا ومسبقا، ثم إن علم النفس وضع – فصلا – لمحاولة تفسير الأغراض الجنونية، فمن العسير عليه – بحكم الوضع والوظيفة والطبيعة – أن يضع يديه على مرتكزات الجمال الفني للنصوص، كما ان الغاية من التحليل النفسي للأدب ليست قراءة الأدب بذاته؛ وإنما اتخاذ النص الأدبي دريعة لتأويل تصرفات الأديب من خلال ما أبدعه (العامري، 2009، ص 376).

ويستدرك الدكتور "عبد الله بن الحلي" أن هذه المآخذ تجلت بوضوح عند الأتباع أكثر من تجليها عند الأستاذ (فرويد) الذي احتاط كثيرا على الأقل من الناحية النظرية (حداد، 1995، ص97).

3- عوامل نشأة الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث

أ - ملامح النقد النفسي عند العرب القدامى

للاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث جذور تضرب في أعماق التراث العربي، وقد التفت بعض النقاد لدراسة ما فيه من أسس و ملاحظات نفسية في محاولة لتأصيل هذا الاتجاه في النقد العربي الحديث من خلال التراث العربي.

يتضح في ما أشرنا إليه سابقاً أن الأدب، هو الرّحم الذي يحتضن النفس الإنسانية بنوازعها وحالاتها. وبدِهِيّ إذن أن تكون في النقد العربي القديم بُذور نفسية، ولكنها لا تعدو أن تكون إشارات عابرةً متفرقةً، ولا يمكن عدّها تقريراً كافياً لاتجاهٍ مكتملٍ أو منهجٍ صريحٍ، وقد ذهب بعض النقاد يستخرج هذه البُذور النفسية من كتب النقد العربي القديم لبيان بعض ملامح النقد النفسي عند النقاد العرب القدامى. وكانت هذه الملامح واضحةً عند ابن قتيبة في "الشعر والشعراء"، والقاضي الجرجاني في "الوساطة" وعبد القاهر الجرجاني في "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز". وليس لنا في هذا الفصل النظري أن نتصدّى لهذه الملامح، لأننا نعتبرها في حاجة إلى بحثٍ قائمٍ بذاته (مختاري، 1998، ص 18).

إن الملامح النفسية في الأدب العربي القديم كثيرة ومتنوعة الدلالة فهي لم تنحصر في الكتب البلاغية فحسب بل نجدها خارج هذه الكتب أيضا في أشعار الشعراء، وكتابات الأدباء وفي مجالس الأدب... (حيدوش، د ت ،ص77)

ويمكن القول أن هذه الملاحظات التي لم يلتفت إليها النقاد إلا في أواخر الثلاثينات والتي تعد من محاور النقد العربي القديم، كان لها دور غير مباشر في إرساء أسس التفكير الرومانتيكي منذ أواخر القرن التاسع عشر، فقد اختلطت هذه الملاحظات للاتجاه السائد آنذاك حول مفهوم الشعر فساعدت على تهيئة الأرضية لقيام الاتجاه النفسي في النقد العربي والتفت إليها النقاد فيما بعد لتقرير صلة الأدب بعلم النفس وتأصيل هذا الاتجاه على أسس تراثية وعلمية (حيدوش، ص77).

ب - الرومانتيكية :

إن رواد الدعوة إلى التجديد في الشعر العربي الحديث الذين قرؤوا الشعر الانجليزي ولاسيما الرومانتيكي منه هم الأكثر اهتماما بهذا اللون من النقد الأدبي الذي يعتمد على معارف علم النفس. (حيدوش، ص77)

فامتد البحث عن الذات الفردية أو الشخصية الفردية إلى الأعمال الأدبية ولاسيما الشعرية منها، وكان هم هؤلاء هو الكشف عن شخصية الشاعر من خلال شعره، فوجدوا ما يروي ظمأهم في العصر العباسي ففي هذا العصر ظهرت الشخصية الشعرية الفردية واضحة .

ولأن شعراء العصر العباسي ولاسيما ابن الرومي وأبو نواس والمتنبي وغيرهم قد عبروا عن حالتهم الذهنية و أحاسيسهم الذاتية. إلا أنهم لم يجتذبوا اهتمام الدارسين إلا بعد ظهور النزعة الرومانتيكية، وللتقارب في وجهات النظر بين المذهب الرومانتيكي في الأدب ومدرسة التحليل النفسي كان تأثير هذه المدرسة في الأدب والنقد تأثيرا واسعا وعميقا فقد قامت على مبادئها المدرسة السريالية. (حيدوش، ص77)

ويشترك كلا من التحليل النفسي والرومانتيكية في النظر إلى اللاشعور بوصفه مصدرا لصورة من صور الحقيقة والواقعية متميز بالصدق والثبات وما الصوت الباطن الذي تنادي به الرومانتيكية إلا مبدأ التداعي الحر الذي اتخذ أساسا للعلاج النفسي. و من هنا نفسر إذا اهتمام رواد الدعوة لشعر الوجدان في الأدب العربي الحديث بالتفسير النفسي للأدب وبالتحليل النفسي لشخصيات بعض الشعراء. (حيدوش، ص72)

ج - الحاجة إلي التفسير العلمي للأدب

لقد كانت الحاجة للروح العلمية أول ما شعرت به الأمة العربية في بداية نهضتها، حتى إذا كان مطلع القرن العشرين ظهرت الحاجة إلى العلم والمنهج والتفكير العلمي. مما صعب على دارس الأدب أن يبقى في دائرة مغلقة بعيدا عما توصلت إليه مختلف العلوم الإنسانية وبدأ يستعير معارف خارج تخصصه.

وأثيرت منذ قيام حركة التجديد في الأدب العربي قضية تمحيص النصوص و تحقيقها و فحص الأماكن و الوثائق و الأشخاص وإثبات صحة وجودها التاريخي، و هي قضايا ما كان دراسي الأدب لينتهوا إليها لولا امتداد الروح العلمية؛ وإحساسهم بضرورة الاستفادة مما توصل إليه الباحثون في مجالات العلوم المختلفة. وتجلت حين عاد بعض المبعوثين من أوروبا، و لاسيما الذين درسوا التربية وعلم النفس حيث جمعوا بين الثقافتين العلمية والأدبية، فصعب عليهم دراسة الأدب بمعزل عن المعارف العلمية لاسيما المعارف النفسية. (حيدوش، ص74) ويبدو أن استغلال المعارف العلمية لفهم الأدب بدأه دارسوا الأدب أنفسهم إذ جمعوا بين الثقافة الأدبية والتكوين الثانوي في علم النفس. منهم خلف الله و النويهي و عز الدين إسماعيل وغيرهم ...

وقد يعود هذا إلى أن حاجة الناقد الأدبي إلى المعرف العلمية كحاجة المتخصص في العلوم الإنسانية الأخرى مثل علم النفس، علم الاجتماع إلى الأدب، لأنها وجدت فيه المجال الخصب للتأويل لما فيه من إيحاءات و رموز. (حيدوش، ص47)

الخاتمة:

قد حاولنا في هذا المقال أن نكشف عن رافد من روافد النقد الحديث هو الرافد النفسي بتتبع مجرى التطور الذي مرت به الدراسات النفسية، والذي كان من أثرها أن امتدت بحوث علم النفس إلى بعض ظواهر الأدب وميادينه، وإبراز التلاحم الطبيعي بين الأدب و الدراسات التي تبحث في أسرار النفس، فظهر النقد النفسي الذي يبحث في الإنتاج الأدبي الذي ينبثق عن طبيعة النفس الواعية و الباطنية.

وبما أن النقد النفسي يتبع الأدب، و يصف الأدباء بالعصابيين، وينسى حياتهم اليومية، فإنه أنار كثيراً من غوامض الإبداع الادبي والرموز التي كانت مستغلقة في وجوه النقاد.

التعليقات والشروحات:

1. الغرائز الجنسية : تعبر قوة (الهو) عن الغاية الحقيقية لحياة الكائن العضوي. وهذه القوة التي نفترض وجودها وراء توترات حاجات الهو نسميها الغرائز، وهي تمثل المطالب الجسدية لدى الحياة النفسية.

2. العصاب: اضطرابات غير مصحوبة باختلال جوهري في إدراك الفرد للواقع، كما هو الحال في الأمراض الذهانية يميز التحليل النفسي بين نوعين من الأعصبة: الأعصبة الفعلية مثل النيروستانيا وعصاب القلق، والأعصبة النفسية وأهمها الهستيريا والعصاب الوسواس . يرجع سيجمند فرويد، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة سامي محمد علي عبد السلام القفاش ص 140.

قائمة البيبلوغرافيا:

1- حيدوش، أحمد، (د ت) ، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث، بن عكنون الجزائر، ديوان المطبوعة الجامعية.

2- حداد، البشير،(1995)، الأدب في المناهج النقدية الحديثة، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة وهران.

3- نوبل، جان بلامان، (1999)، التحليل التحليل النفسي و الأدب، ط 2، بيروت لبنان، منشورات عويدات.

4- خريستو، نجم،(1991)، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، ط1، بيروت، دار الجيل.

5- خلف الله، محمد،(1961)، من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط2، جامعة الدول العربية، القاهرة.

6- العامري، رشيد، (2009)، النقد النفسي، الملتقى الدولى الثالث حول الخطاب النقدي العربي المعاصر ، منشورات المركز الجامعي خنشلة، عين مليلة ، الجزائر ، دار الهدى للنشر و التوزيع.

7- مختاري، زين الدّين ،(1998)، المدخل إلى نظريّة النّقد النّفسيّ ، سيكولوجيّة الصّورة الشّعريّة في نقد العقّاد نموذجا، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

8- عكاشة، شايف ،(1985)، اتجاهات النقد المعاصر في مصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

9- فرويد،(1988)، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة سامي محمود علي، عبد السلام القفاش، مراجعة مصطفى زيور، ط2، القاهرة، دار المعارف.

10-عزام، محمد، (2002)، سلطة الكاتب، جريدة الأسبوع الأدبي العدد 808 تاريخ النشر 2002/5/18.

11- راغب، نبيل ،(2003)، موسوعة النظريات الأدبية، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لوجمان.